

BEFORE MEMORY ARRIVES



FERDINANDO FREGA

قبل أن تصل الذاكرة

The Art of Attraction · 08

حين يولد طفل، أوّل ما ينظر إليه الجميع هو العينان.

نحنني فوق المهد، نقترّب أكثر، نبحث عن لون.

هل ستكونان عينيّ أمّه؟

هل ستكونان عينيّ أبيه؟

ثم يأتي طبيب، أو ممّرضة، ويقول ما لا يريد أحد أن يسمعه: إن اللون لم يوجد بعد. إنه في البداية يكاد يكون واحدًا عند الجميع. رماديّ، أزرق باهت، لون من لم ير شيئًا بعد.

لأن الأمر هكذا.

في بداية الحياة، تكون النظرة كونيّة.

إنها فارغة.

وتحتاج شهوّرًا لتمتلئ.

القرحية تعمل ببطء. تضع قليلًا من البنيّ، قليلًا من الأخضر، قليلًا من الأسود. كأن الجسد ينتظر أن يفهم أيّ عالم سيكون عليه أن ينظر إليه قبل أن يقرّر بأيّ عينيّن ينظر إليه.

لطالما فكرتُ أن الأمر لا يختلف كثيرًا بعد ذلك.

نواصل الولادة بتلك النظرة الفارغة.

ونقضي بقيّة وقتنا في ملئها.

كلّ تجربة تترك أثرًا.

كلّ فرح يضيف ظلًا من اللون.

كلّ حزن يضيف ظلًّا آخر.

وهكذا، دون أن ننتبه، تكفّ العينان عن أن تكونا مجرد جزء من الجسد
وتصيران أرشيقيًا.

ذاكرة صامتة.

ثم تأتي اللحظة التي ندرك فيها حقيقة بسيطة وقاسية: إننا كثيرًا ما لا
نرى الناس حقًّا إلا حين لا يعود في وسعنا أن ننظر إليهم.

وعندها تعيدنا الذاكرة إلى الورا.

إلى جملة لم تُقل.

إلى مكالمة أُجّلت.

إلى زيارة كان يمكن أن نقوم بها.

إلى عناق حسبه أمرًا مضمونًا.

لا، لم أفقد عقلي.

«اصبر قليلًا بعدُ أيها القارئ، واتبع تفكيري.»

كم مرة نفكّر في الذين رحلوا، وفي الأشياء التي كنّا نودّ أن نقولها أو
نفعلها؟

حدث ذلك للجميع.

وسيحّدث مرة أخرى.

لو استطعتُ اليوم أن أتحدّث مع أحد لم يعد هنا، لاخترتُ أبي، أمي،
جدّي وجدّتي، أختي، صديقًا قريبًا.

وكنْتُ سأبدأ دائمًا بالطريقة نفسها.

كنْتُ سأقول:

«سامحني إن لم أملك الوقت الذي كنتَ تستحقّه.

سامحني إن ظللتُ أركض خلف أموري العاجلة، وأهدافي، وأنا نيتي اليومية، دون أن أفهم أنني أنا أيضًا سأسير يومًا الطريق نفسه الذي سرته.»

ثم يسافر الذهن أبعد من ذلك.

تعبّر القرون.

أودّ أن ألتقي يسوع، لا لأطرح عليه أسئلة، بل لأصغي إليه فحسب. أودّ أن ألتقي غاليليو غاليلي، وأينشتاين، وماكيافيلي، وميكيلانجيلو، ودانتي أليغييري، وبادري بيو من بيتريلتشينا، وكيبيلينغ، وجون فيتزجيرالد كينيدي — وبائع الخضار في الطابق الأرضي، ومعه صاحب حانة النبيذ.

ثم، كأنني تحت تأثير سحر، أودّ أن أصغي إلى نساء العالم كلّهن.

دون تمييز.

لأن كلّ واحدة منهن سيكون لديها شيء مختلف ترويه.

منظور مختلف.

قصة مختلفة.

حقيقة مختلفة.

ومع ذلك، حين أعود فأنزل بقدمين ثابتتين على الأرض، أصل إلى مقارنة تبدو لي جميلة.

إن لم يُشارك كلّ ما نصنعه، وكلّ ما نؤمن بأن له قيمة، وكلّ ما قد يترك شيئًا للآخرين، مع الناس في الوقت المناسب، فإن الشيء نفسه يحدث دائمًا.

يأتي اليوم الذي سيقول فيه أحدهم:

«يا للأسف. كنتُ أودّ أن ألتقيه.»

«يا للأسف. كنتُ أودّ أن أصغي إليه.»

«يا للأسف. كنتُ أودّ أن أعرف ما كان يفكر فيه.»

لكن مسؤولية ما لا يُرى لا تقع أبدًا على من يصنع وحده.

كثيرًا ما تقع على الذين لا يُظهرونه في الوقت المناسب — وهنا، كالعادة، النساء هنّ المعلّّات: إنهن يعرفن كيف يُزيّن.

وتقع على الذين يقرّرون ما يُرى: الويب. إن لم يمنحك Google الظهور، فلن يقرأك أحد — إلا إذا دفعت.

على الذين لا يسمحون للناس بأن يلاحظوا ما يحدث أمام أعينهم مباشرة.

لأن الذاكرة تصل دائمًا تقريبًا بعد ذلك.

أما النظرة، حين نكون محظوظين، فتصل في الوقت المناسب.

Ferdinando